تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »

* * *

هذا هو الصراط المستقيم ، والمبدأ الوسط ، الذى تسير عليه الشريعة الإسلامية فى جميع أحكامها ، والذى صلحت به لكل زمان ومكان ، واستحقت به الخلود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين

محمود شلتوت

وديعة مدينة سالم

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

محمد بن أبى عامر شابّ عربىّ آباؤه من مُعافِر، وخؤولته فى تَميم. دخل جدُّه عبد الملك بن عامر الأندلس فى جند طارق بن زياد . وارتقت بأسرته الأمور حتى عُدت فى أُسَر الوزارات فى الأندلس .

نشأ محمد نجيبا طموحا هُماما تبشّر مخايله بنباهة شأنه ، وتَعِد همّته بعظيم مستقبله ، بل تكفل آماله سؤدده ، ويضمن عزمه مجده . يسهر ليله وهو طالب علم يفكر فيمن يوليه القضاء إذا آل إليه أمر الأندلس . والمرء حيث يضع نفسه .

صار من أعوان قاضى قرطبة محمد بن السليم ، ثم وكيلا لولى العهد هشام بن الحكم المستنصر ، وتداولت كفايته وحزمه المناصب إلى أن ولى شرطة قرطبة سنة إحدى وستين وثلثمائة فضبط الأمور وقمع الأشرار ثم دعاه النزو قلبىّ ، فاجتمعت له الشرطة وقيادة الجيش .

فأما حزمه فى الشرطة فقد قال صاحب البيان المغرب :

« فضبط محمد المدينة ضبطا أنسى أهلَ الحضرة من سلف من الكُفاة وأولى السياسة . ولقد كانوا قبله فى بلاء عظيم يتحارسون الليل كله . ويكابدون من رَوعات طُرّاقه مالا يكابد أهل الثغور من العدوّ . فكشف الله عنهم بمحمد بن ابى عامر وكفايته وتنزهه . فسدّ باب الشفاعات ، وقمع أهل الفسق والدعارات ؛ حتى ارتفع الباس ، وأمن الناس . وأمِنت عادية المتجرّمين من حاشية السلطان حتى لقد عثر على ابن له فاستحضره فى مجلس الشرطة وجلده جلدا مبرحا كان فيه حمامه ، فانقطع الشر فى أيامه جملة » .

وأما الغزو فكان قائده المظفر ، وبطله المحبَّب . وسيأتى حديثه .

ما زال ابن أبى عامر يرقى منصبا إلى منصب ، ويعلو مجدا إلى مجد كالنسر يعلو مرقبا إلى مرقب حتى يوفى على القنة . فلما توفى الحكم المستنصر وآل الأمر إلى طفله هشام اجتمع له الأمر كله وظفر بأعلى مناصب الدولة ، حجابة الخليفة . ثم وكله إلى ابنه عبد الملك وجعل له القيادة العليا وسائر مناصبه وجعل ابنه عبد الرحمن وزيرا . وسما هو إلى السلطان الأعلى . وتسمّى المنصور . وأمر أن يكتب عنه « من المنصور ابن أبى عامر وفقه الله » ثم كتب إليه باسم (الملك الكريم) .

— ٢ —

ملك ابن أبى عامر الأندلس ستة وعشرين عاما ، يديرها ويؤمنها بعدله وعزمه ويعمرها ببرّه ، ويجمّلها بأبنيته ، ويضرب أحسن الأمثال فى البأس الذى لا يخالطه جور ، والعدل الذى لا تشوبه هوادة ، والانصاف الذى لا يُميز قريبا من بعيد ، والحكم الذى لا يعرف إلا النصفة والمساواة والنفاذ على كل الناس فى كل الأحوال .

ولم تكن سياسته العادلة الحازمة ، أعظم من قيادته المظفرة . حتى لقد جاوزت غزواته أقصى غزوات الناصر ، وحارب حيث لم يحارب قبله أمير من أمراء الأندلس .

غزا خمسين غزوة كانت الثامنة والأربعون منها إلى شنت ياقوب على البحر فى أقصى الجزيرة إلى الشمال والغرب ، ولم يحاولها

قبله ملك عربي في الأندلس .

قال صاحب البيان المغرب :

« ومن أوضح الدلائل على سعده أنه لم يُنكب قط في حرب شهدها ، وما توجهت قط عليه هزيمة ، وما انصرف عن موطن إلا قاهرا غالبا على كثرة ما زاول من الحروب ، ومارس من الأعداء وواجه من الأمم . وإنها لخاصة ما أحسب شركه فيها أحد من الملوك الاسلامية . ومن أعظم ما أعين به سعة جوده ، وكثرة بذله ، فقد كان في ذلك أعجوبة الزمان » .

— ٣ —

هذه سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة من الهجرة والمنصور بن ابي عامر يعزم على غزو جليقية في أقصى الشمال والغرب وهو مريض ولكنه كما قال أبو الطيب :

وقد علمت خيله أنه إذا همّ وهو عليل ركب

سار من طليطلة إلى قشتيلة فأبعد الغارات فيها ، ودوّخ بلاد شانجه زعيم الأمراء المناوئين هناك .

وازداد بالبطل مرضه ، « فاتخذ له سرير خشب ودعّ عليه أعضاءه وسُوّي مهاده متطاول الشكل يمكنه الاضطجاع عليه متى خارت قواه ، وكان يُحمَل سريره على أعناق الرجال وسيجفه مسدل عليه ، وعساكره تحف به وتطيع أمره ...[1] وكانت تحمل سريره السودان الرقاصة للين مشيهم . بذلك قطع أربعة عشر يوماً حتى وصل إلى مدينة سالم »[1] .

— ٤ —

المنصور في قصره من مدينة سالم قد استولى على الأمد من مجده ، وأوفى على الغاية من عمره . ينظر إلى الحوادث الجسام قد اتخذها درجا إلى المعالي ، ويتمثل الزمان رخاءه وشدته وسلمه وحربه . ويرى الأندلس كلها وأصقاعا من المغرب طوع حكمه ، وتحت أمره ، ويشفق من تبعات هذا التاريخ المتطاول وأعباء هذا السلطان العظيم ويرى كل شيء وراءه ولا يرى أمامه إلا الموت . يقول :

« إن زماني يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما فيهم أسوأ حالاً مني . وددت أن أقال زلّتي ، وأنا كبعض هؤلاء السودان الحاملين لسريري » .

وأخذ الرجل العظيم يوصي أمراءه وجنوده . وخلا بولده عبد الملك يوصيه ويودعه ويقبض على يده ، وكلما ذهب عنه استردّه مستدركا بوصيته . وعبد الملك يبكي فينكر عليه ذلك ويقول هذا أول العجز والفشل »[1] .

أوصى عبد الملك وصية الخبير الحنّاك ، الأريب المجرّب . وأفرغ في أذنه وقلبه تجاريب عشرات السنين . ولم يترك عظيما من أمور مملكته وأسرته إلا بيّنه .

ثم أمره أن يستخلف أخاه عبد الرحمن على العسكر ويعود هو إلى قرطبة ليتدارك أمور الملك .

— ٥ —

ابن أبي عامر في مدينة سالم في أقصى الجزيرة الأندلسية ، كالأسد أبعد في مسراه ، والنسر غالى في تحليقه ، يختم مجده مجيداً ، وينهي جهاده مجاهداً ، ويختم قصيدة ظفره ببيت رائع ، وسجل مجده بسطر بليغ ، قصيدة مطلعها الطموح ومقطعها الظفر وسائر أبياتها الهمة التي لا تقهر ، والعزيمة التي لا تثنى ، وسجلّ مقدمته طموح طالب علم في قرطبة ، وخاتمته ملك حازم ، وقائد مظفّر ، ومجاهد غازٍ في أقصى الثغور .

ليلة الإثنين لثلاث بقين من رمضان عام ثلاثة وتسعين وثلثمائة وألف في مدينة سالم مات الرجل النابغة والعبقري الداهية . ودفن في قصره هناك . وكان أوصى أن يدفن حيث يقبض ولا ينقل تابوته . وأراد أن يجعل قبره في هذا الثغر القصي دعوة إلى الجهاد دائبة ، ومثلا في المجد سائراً ، وحرزاً على الثغور حريزاً ، ورباطاً على الحدود مشهوداً .

ليت شعري أين قبر المنصور من قصره من مدينة سالم ؟ بل ليت شعري أين تاريخ ابن أبي عامر من صدور شبابنا ، وكتب مؤرخينا ، وأقلام كتابنا ، وقصائد شعرائنا ؟ ! يا شعراء العربية من ينظم القصيدة الرائعة التي عنوانها : « وديعة مدينة سالم » ؟

عبد الوهاب عزام

(١) في أحد متاحف أوربا صورة ابن أبي عامر محمولا على سريره .

(١) ما بين القوسين منقول عن الذخيرة عن ابن حيان المؤرخ الأندلسي .

(١) عن الذخيرة